1

إنه فورد، وليس لينكولن

تغيير الحرس

كان جيرالد رودولف فورد رجلاً غير معقد يؤمن بالقضاء والقدر بالنسبة لأكثر المهمات تعقيداً في تاريخ الأمة. كان أول رئيس غير منتخب يُدعى إلى أن يداوي جراح الأمة بعد عقد أفرزت خلاله حرب فيتنام وفضيحة ووترغيت أشد الانقسامات منذ الحرب الأهلية. خلافاً للشخصيات التي تدفع بنفسها نحو المناصب العليا، كان جيرالد فورد محافظاً على هدوئه وثقته بالأمة التي عانت من تقلبات عدة، كما تجاوز سلسلة من الأزمات الدولية، وافتتح فترة من التجديد للمجتمع الأمريكي.

قبل سنة من تقلده المنصب ما كان يَتوقع أن يصل فورد إلى الرئاسة. كان أعلى منصب يطمح للوصول إليه هو أن يكون رئيس مجلس النواب. وكان الوصول إليه صعباً بسبب الأكثرية الحصينة للحزب الديمقراطي في الكونغرس. والحق أن فورد كان قد قرر أن يستقيل بعد الانتخابات التالية في تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1974. وفجأة عيّنه ريتشارد نيكسون في تشرين الأول (أكتوبر) نائباً للرئيس في أعقاب استقالة سبيرو أغينيو. قال فورد بتواضع: «أنا فورد ولست لينكولن» عندما استلم المسؤولية في 6 ك1 (ديسمبر) 1973 .

ولما كان لم يشعر قط بالالتزام في المشاركة في الحسابات الاستحواذية للمرشحين الرئاسيين العاديين فقد كان فورد مرتاحاً نفسياً. في عالم يخشى أن تنشغل أمريكا بشؤونها الداخلية عن قيادتها العالمية التي لا يستغنى عنها أثناء فترة كانت ما تزال قمة الحرب الباردة، قدم شعوراً بالهدف المتجدد. بالنسبة لشعبه فإن هدوء فورد الواقعي منح الهدية الثمينة التي تَمكّن الأجيال التالية من أن تكون غير عارفة كم كانت الكارثة قريبة من بلادهم في عقد كانت تتمزق فيه.

إن الخطوة المتسارعة أبداً للتاريخ تهدد باستهلاك الذاكرة. حتى أولئك الرجال منا الذين شهدوا انقسام إدارة نيكسون وجدوا أنفسهم يناضلون من أجل استبعاد شعور اليأس الذي غمر الرئاسة المنهارة والشعور بالتفرق بسبب الخلافات التي لا تنتهي وسوء التصرف، والكراهية العاطفية لوسائل الإعلام، والحرب المكشوفة بين السلطتين التنفيذية والتشريعية للحكم.

فـي دوري المـزدوج بصفتـي مستشاراً للأمـن القومي وزيـراً للخارجية، كان هاجسـي الدائم، فيما ووترغريـت تتسـارع، أن يحاول خصم مـا، آجلاً أم عاجلاً، اختبـار إذا ما كانت سلطـة نيكسون ما تزال باقيـة، أم ليكتشـف أن الإمبراطور بـلا ثياب. ولعل أفضل خدمـة قدمتها إدارة نيكسون فـي تلك الشهور الأخيـرة العجيبـة والمضطربة أنها حالت دون هذا التحدي المكشوف. ذلك أن إدارة نيكسون وإن اقتربت من الانحلال إلا أنها نجحت في اجتياز الحرب العربية ـ الإسرائيلية عام 1973، وتقليص النفوذ السوفييتي فـي الشرق الأوسط بإيجادها اتفاقيتين لفصل القوات، ومـن أن تقود بنجاح دبلوماسية ثلاثية معقدة مع موسكو وبكين.

عـدم التوافـق في السلطة التنفيذية في قوة عظمى ديمقراطيـة لا يؤدي إلى انهيار موقفنا الدولي كما بيّـن أي كتـاب قياسي في السياسة العالمية، ولذلك يعود جزئياً أن الاتسـاع الصرف لعدم تكامل السلطة الرئاسيـة لا يمكـن تخيله بالنسبة لصديـق أو عدو على حد سواء. وبالإضافة إلـى تصاعد مكانة نيكسون علـى مدى خمـس سنوات من نجاحات السياسـة الخارجية التي حققها، فقد كنـا قادرين على الاستمرار فيما يقترب من سياسة الخداع. ففي تشرين الأول عام 1973 في نهاية حرب الشرق الأوسط، أظهرنا أننا قـادرون على استنفار قواتنـا العسكرية، بما في ذلك ترسانتنا النووية. ولكن مع كل شهر يمر كانت قبضة اليد تتراخى. كنا نعيش في الوقت المستعار.

مع تجمع زخم إجراءات الاتهام، كان تصرف نيكسون الشخصي قد بدأ يعكس انحداره السياسي. ولكنه ظل مواكباً تماماً لمختلف قضايا السياسة الخارجية ولم يخفق في اتخاذ القرارات الأساسية عند أية نقطة. ولكـن مع مرور الوقت كانـت ووترغيت تمتص من رصيـد نيكسون العاطفي والذهني أكثـر فأكثر. وأضحت القضايـا اليومية هامشية بسبـب الحتمية الواضحة على نحو متزايد لسقوطه، شعرت بتعاطف كبير مع هذا الرجـل المعذّب الـذي كانت معاناته مترافقة مع معرفته أن مأساته كانـت إلى حد كبير من صنع يديه. ومع هذا ففي بداية تموز 1974 شعرت بكثير من التعاطف، كشأن كثير ممن نجوا من مأساة نيكسون، نحوه.

عمليـة الإنهـاك الوحشية بدت لا نهاية لها ولا يمكـن أن تنتهي معاً. حتى عندما أمـرت «المحكمة العليا» فـي 24 تموز البيت الأبيـض بإعادة الأشرطة إلى المدعي العام، كنت معتاداً جداً على الأزمات اليومية بحيث كنـت أشك بظهور شيء بصورة نهائية. ففـي 25 تموز رافقت وزير الخارجية الألمانية الجديد هانز ديتريش غينتشـر إلـى البيـت الأبيض الصيفي في سانـت كليمينت من أجل لقـاء مع الرئيس. وبعـد مضي ساعة من النظرات المختلسة سألني غينتشر في اليوم التالي السؤال الذي آلمني: «إلى متى يمكن أن يستمر هذا؟».

فـي 31 تمـوز، طلب آل هيـغ الذي كان آنذاك رئيس مكتـب نيكسون، مني لقاء مستعجـلاً أعلمني فيه أن أحـد أشرطـة التسجيل التي أمـرت «المحكمة العليا» بتسليمها إلى المدعي العـام كان حقاً «النار ذات الدخان» ـ البرهان الناصع على مشاركة نيكسون في المؤامرة. هيغ لن يفشي سر المحتويات.

حتى عند حافة الهاوية، استمر المظهر السِّريالي لووترغيت، قرر البيت الأبيض أن ينشر الشريط في 5 آب من أجل أن يكون قادراً على وضع «روايته» حوله. وكان قد جاءني في اليوم السابق صديقتي دايان سوير التي كانت في ذلك الوقت مساعدةً لسكرتير لينكسون الصحفي، رون زيغلر، وهي الآن شخصية تليفزيونية وطنية، كي تتفحص بعض تفاصيل العلاقات العامة حول مسألة لا علاقة لها بالسياسة الخارجية. لم تكن قد سمعت الشريط كما قالت، ولكنها بدأت تعتقد أن الذروة لن تصل أبداً وأننا محكومون بنزيف الموت ببطء، وقالت: إن الشريط كما هو متوقع سوف يجري التخلص منه.

ولكن دايان الجميلة الذكية كانت على خطأ، إذ كان يُسمع في الشريط صوت نيكسون بوضوح وهو يعطي تعليمات لرئيس موظفيه هـ. ر. «بوب» هالدمان، باستخدام وكالة المخابرات المركزية كي تحول دون تحقيق مكتب التحقيقات الفدرالي FBI في السطو على «ووترغيت». هذا البرهان على محاولة إعاقة العدالة قدم الدليل لإثارة فضيحة ووترغيت. وقد وصفت في مكان آخر بالتفصيل الانفجار الذي أعقب نشره ـ ثورة مجلس الوزراء، وقرار كبار الجمهوريين بالتخلي عن الرئيس، ولقاءاتي مع نيكسون والمواجهة الكئيبة في غرفة لينكولن للجلوس في الليلة ما قبل الأخيرة في البيت الأبيض ـ كل ذلك تراكم إلى حد الوصول إلى قرار نيكسون بعد 48 ساعة بالاستقالة، التي باتت سارية ظهر يوم 9 آب[1]. في هذه الصفحات سوف أكرس نفسي لتعاملي مع جيرالد فورد الذي سيصبح رئيساً.

صبيحة اليوم الذي تم فيه تسليم الشريط هتف نيكسون بطلب غريب: هل أستطيع أن أدعو نائب الرئيس وأطلب منه أن يدعو أعضاء الكونغرس الجنوبيين الرئيسيين لأحادثهم في الشؤون الخارجية؟ لم يوضح نيكسون غرضه، ولكن من الواضح أنه ظن أن ذلك قد يحثّ النواب على التصويت ضد العقوبة والاتهام.

كنت قد قابلت جيرالد فورد لأول مرة منذ عشر سنوات تقريباً خلت، عندما دعوته، بصفته أستاذاً في هارفرد، للتحدث في حلقة حول الشؤون الدفاعية التي كنت أجريها تحت رعاية «مدرسة هارفرد للحقوق» و«مدرسة الإدارة العامة». وهي تُعرف اليوم باسم «مدرسة جون ف. كينيدي للحكم». ناقش فورد إشراف الكونغرس على ميزانية الدفاع، وهو موضوع يعرفه جيداً من خلال عضويته في «لجنة الدفاع الفرعية في المجلس. الخاصة بالمخصصات». وقد ترك انطباعاً حسناً لدى الطلاب الذين كانوا بسبب الجو السائد للاحتجاج ضد حرب فيتنام حيث كان كل شيء، معادياً عند المدافعين بقوة عن فيتنام.

بعد أن أصبحت مستشار نيكسون لشؤون الأمن القومي، كان فورد بوصفه زعيم الأقلية في مجلس النواب يحضر بعض مناقشات البيت الأبيض. وكانت مداخلاته حساسة ومؤيدة وعامرة بالفكاهة. وفي الأشهر الثمانية من توليه نيابة الرئيس كان فورد وفياً للرئيس، بقي بعيداً عن تناقضات ووترغيت ولم يقم بأعمال كبيرة في الرئاسة؛ كنت أقابله مرة في الشهر تقريباً، حيث كنت ألخّص له تطورات السياسة

الخارجيــة، فــي حين أن الجنرال برينــت سكوكروفت، نائبي، كان يراه أكثر منــي. كان فورد يكتفي بطرح أسئلة استيضاحية، الوضع الملائم لتصرف نائب الرئيس، الذي لا يملك صلاحية محددة، لذا كان يفضل أن يطرح أية اقتراحات لديه أمام الرئيس مباشرة وليس إلى مساعديه.

لم أسأل فورد قط عما يدور في ذهنه عندما دعوته في ذلك الصباح المصيري من الخامس من شهر آب، بنــاء على طلب نيكسون، في دعوة أعضــاء الكونغرس الجنوبيين إلى محاورة في السياسة الخارجية. ولم يُعط أي تعليق. في ذلك الحين، كما نعلم الآن كانت قد تشكلت جماعة صغيرة كي تنصحه بأن التحول الحتمــي قــد تحدد. هل فكر أننــي كنت أحاول جذب اهتمامــه إليّ؟ هل كان يعتقــد أن نيكسون يسعى إلى إحراجه؟ مهما كان تفكيره فإنه كان مستقيماً. قال إنه سيفعل ما طلبه الرئيس، وأضاف بأن ذلك لن يكون لــه قيمة تذكر بالنسبة للتصويت على العقوبة، فالأمور قد ســارت بعيداً جداً، وقضايا السياسة الخارجية لن يكون لها تأثير في قرار مجلس النواب.

سُلّم الشريط وتم الاستماع إليه، واتخذ فورد الخطوة التي لا سابق لها في 6 آب بإبعاد نفسه عن الرئيس في اجتماع المجلس الوزاري. قال إنه لن يدافع عن موقف الرئيس في ووترغيت بعد الآن، وبالتأكيد ما كان ليفعل ذلك فيما سبق لو كان يعلم ما في الشريط. علانية بالرغم من ابتعاده صامتاً من هذه المسألة على أساســ أنــه جزء من الرئاسة. ألّا أن فورد أكد أنه سيفترق عن الرئيس، ولكنه سيستمر في تأييد سياسات نيكسون:

> كل واحــد هنا يعترف بصعوبــة الموقف الذي أنا فيه. ولا أحــد يأسف مثلي لهذا المشهد التراجيــدي. إنني أكِـنّ لك عاطفة شخصية عميقة يا سيــادة الرئيس، وكذلك لأسرتك. ولكننــي أريــد أن أؤكد أنني لو لم أعرف ما تكشّف بالنسبة لووترغيت في الساعات الأربع والعشريــن الأخيرة، لما قمت بعدد من البيانات بصفتــي زعيماً للأقلية أو نائباً للرئيس. لقــد توصلت إلى قــرار بالأمس ولعلك تعرف أنني أعلمت الصحافــة أنه بسبب التزامات الكونغرس والجمهور، ليس لدي تعليق آخر حول المسألة لأنني أنا جزء من المسؤولية. أنا متأكــد أنــه سيكون هناك اتهام بالتقصير في مجلس النــواب. لا أستطيع التنبؤ بالنتيجة التي سيصل إليها مجلس الشيوخ، ولن أعلق على هذا. لقد منحتنا أفضل سياسة خارجية عرفتهــا هذه البــلاد. وقمت بعمل عظيم كان موضع تقدير الشعــب. دعني أؤكد لك أنني سأستمر في تأييد سياسة الإدارة الخارجية ومكافحة التضخم[2].
>
> مــا كنت لأتحــدث مع فورد في ذلك الاجتمــاع، إلا بعد أن قرر نيكســون تقديم استقالته. لقــد بــات من المؤكــد الآن أن فــورد سيصبح هــو الرئيس. فــي ذلك الأسبــوع العاصف لاستقالــة نيكســون، لم يكن لدي وقــت للتفكير كيف ستؤثر تلــك الاستقالة في مصيري.

قبـل أن أفكر بالموضـوع، اتخذ فورد القرار بالنيابة عني عندما أبلغني هاتفياً صباح يوم 8 آب (أغسطـس) بعـد أن أعلمه نيكسون بخططه للاستقالة. طلب مني فورد أن آتي إلى لقائـه، وترك تقدير الوقت لي على طريقته غير الرسمية. وسألني أثناء المحادثة نفسها أن أستمـر في عملـي كما لو أنه يطلب منـي معروفاً أن أوافق. جـرت المحادثة على هذا النحو:

فورد: صباح الخير.

كيسنجر: السيد نائب الرئيس!.

فورد: كيف حالك يا هنري؟.

كيسنجر: رائع.

فورد: انتهيت لتوي من الحديث مع الرئيس، وسلمني قراره، وأمضينا قرابة ساعة و20 دقيقة هناك، وأثناء مجرى الحديث أشار إلى أنك كنت الوحيد في مجلس الحكومة الذي يشاركه الرأي.

كيسنجر: هذا صحيح.

فـورد: آمل أن نلتقي معـاً في وقت ما من بعد ظهر اليوم بحسب ما يريحك. فليس لدي خطط أخرى سوى أن أبدأ بالاستعداد.

كيسنجر: هل توقيت الساعة الثالثة مناسب لك يا سيادة نائب الرئيس؟.

فـورد: سيكـون هذا توقيتاً جيداً يا هنـري، سأرحب به كثيراً ومهما كانت خططـك فستكون أفكاري مرنة للغاية.

كيسنجـر: بعد أن تكلّم إلـيّ الرئيس أمس حضّرت بعض الاقتراحات المؤقتة من أجلكم للنظر فيها. هل أستطيع أن أحضرها معي؟.

فورد: بالطبع.

كيسنجر: إنها أمور ينبغي القيام بها في غضون اليومين التاليين.

فورد: سأكون ممتناً لرؤيتك ولجلب أي شيء معك يا هنري.

كيسنجر: حسناً. ثمة شيء فني آخر، هل نستطيع أن نخبر الصحافة أنني سآتي إلى مقابلتك، أم أن من الأفضل أن تعلن أنت عن ذلك؟ ليس هذا بالأمر الضروري جداً ونستطيع أن نتجنبه كلياً.

فـورد: لا أرى سببـاً يمنع من أن تقول إنك قـادم لزيارتي، لا أجد ضرراً في ذلك. كيسنجر: لن نقول شيئاً آخر.

obeikandl.com

فورد: أعتقد أنه من المهم حقاً أن نعلن عن ذلك، لذا أعلن عن ذلك ياهنري.

كيسنجر: أفهم من وجهة نظر السياسة الخارجية أنها ستكون ذات تأثير مهدئ.

فورد: لماذا لا تعلن ذلك بأية طريقة تراها مساعدة؟ لا تتردّدْ في زخرفتها.

كيسنجـر: أعتقـد أنه مـن الأفضل، إذا وافقتم، أن تقـول إنك دعوتني، وطلبت منـي أن أراك وإنني سآتي في الساعة الثالثة.

فورد: حسناً جداً، يا هنري.

كيسنجر: أنا أدعو لك، وأنت تعلم أن العالم كله يعتمد عليك يا سيادة نائب الرئيس.

فـورد: أعلم ذلـك يا هنري، ولسوف نتحدث مطـولاً عن ذلك، وكما أشرت فـي محادثاتنا السابقة أريدك حقاً أن تبقى وأن تقف إلى جانبي في هذه الأوقات الصعبة.

كيسنجر: تسطيع الاعتماد علي يا سيادة نائب الرئيس؛ ستكون أمامنا فرصة للتحدث في هذا.

فورد: أريد أن يحصل ذلك الآن لذا لا شك في ذلك.

كيسنجر: أنا شديد الترحيب بعمق تفكيرك لما ذكرت.

فورد: سنراك في الساعة الثالثة إذن.

الأحداث الدرامية لا تُعلن دائماً في حوار درامي. عندما أعيد قراءة هذه المحادثة من منظور عقدين فائتين أفاجأ بواقعيتها وما تعنيه. في ذلك الوقت تأثرت في فهم الطريقة التي نقل بها فورد قرار نيكسون بأنـه سيعينـه رئيساً، بدون عبارات متباهيـة وبدون تأثير ذلك العاطفي في نفسـه، وتأثرت بحصافته في وضع نهاية سريعة لأي شكوك شخصية يمكن أن تخامرني.

سـاد جوُّ المحادثة لقاءنـا بعد ظهر ذلك اليوم. جرى اللقاء في مكتب نائب الرئيس الواسع في «مبنى المكتـب التنفيذي القديم» الذي كان مخصصاً قبل الحرب العالميـة الثانية لوزير البحرية. هذا الصرح الـذي يشبه كعكة الزنجبيل منفصل عن البيت الأبيض بممر ضيـق «الشارع التنفيذي الغربي» ومرد ذلك بالدرجـة الأولـى بسبب هوه الاختلاف التـي لا يمكن جَسرها من حيث السلطة الفعليـة. بهذا المعنى فإن موقع مكتب نائب الرئيس يعكس قوته الحقيقة بوجهٍ صحيح .

في الأوقات ذات الطابع البيروقراطي الأدنى ـ حتى عام 1947ـ كان «مبنى المجلس التنفيذي القديم» يُستخـدم لاحتواء، وزارة الخارجية ومن قبلها دوائر الجيش والبحرية. لاتوجد في واشطن مكاتب أفضل إعـداداً لتحفيز ردود الأفعال، فالأسقف عالية، والحجوم واسعـة بالمقاييس المعاصرة. والمكاتب الأكبر تتمتع بشرفات خارجية كثير منها يشرف على المروج الخضراء للبيت الأبيض.

obeikandl.com

أثنـاء اجتماعـي مع فورد في عصر يوم الثامن من آب (أغسطس)، جلست على أريكة قرب الشرفة، فيمـا جلس فـورد على كرسي مريح وظهره للنافذة. بـدا هادئاً وغير رسمي وغيـر متصنع، بدأ المحادثة بالقـول إنـه نوى أن يعلن الخبر حتى قبل أن يـؤدي القسم الذي جرى في الليلة نفسهـا. وأضاف بأنه كان يشعـر بالراحة تجاهـي منذ لقائنا الأول في هارفـرد، وأضاف بغير تصنع أنه شعـر بالثقة لأننا «سنسير معاً». وأجبته أن من واجبي أن أرافقه وليس خلاف ذلك.

عنـد هذا تحولنـا إلى المشكلات العملية لانتعـال السلطة، ولتجنب الاضطراب فـي الخارج، كان من المهـم أن نُظهر التأكيد على استمرار سياستنا الخارجية، فـي الفترة الانتقالية على الأقل، حتى يستطيع الرئيـس الجديـد أن يقـرر أية تغيـرات يريدها. من أجـل هذه الغاية أحضـرت خطة انتقاليـة أبرز سمة فيهـا هـي أن أضع أمام كل حكومة فـي العالم رسالة رئاسيـة شخصية. بالإضافة إلى ذلـك أوصيت بأن يلتقـي الرئيس الجديد بجميـع السفراء المعتمدين فـي واشنطن، بحيث ينقلـون انطباعاتهم الشخصية إلـى حكوماتهم. هاتـان الخطوتان هما للحيلولة بين الحكومات المختلفة وبين بناء أحكامها الخاصة على الإشاعـات والتخمينات. ولمـا كان من المستحيل الاجتماع بكل سفير على حدة، اقترحت أن يلتقيهم فورد وفـق مجموعـات إقليمية، مُخصصاً مدة ساعـة تقريباً لكل مجموعة. المجموعـة الأولى ستكون مجموعة سفـراء حلف «الناتـو» تليها مجموعة أمريكا اللاتينيـة، فالشرق الأوسط، وإفريقيـا، وجنوب شرق آسيا. ولما كانت دول شمال شرق آسيا لا تشكل أية مجموعة، ولئن كانت اليابان حليفاً أساسياً والصين عنصراً أساسيـاً في دبلوماسيتنا الثلاثية، فإنني أنصح باستقبال ممثليهم الدبلوماسيين كلاً على حدة. (كان أنا تولـي دوبرونين، السفير السوفييتي، في إجازة يقضيها في بـلاده، ولسوف يستقبل حالما يعود)[3]. أخيراً سيكون هناك اجتماعان منفصلان مع سفيري كوريا وفيتنام الجنوبية ـ وهما بلدان سُفك من أجلهما دم أمريكي غزير، وسلامتهما النهائية كانت تعتمد على أن يفهما التزام الرئيس الجديد بأمنهما.

أخذ فورد بعض الوقت وهو يتأمل في الوثائق المختلفة. ودعا جون أو. مارش (جاك)، للانضمام مطولاً إلـى اجتماعنـا، والذي كان ينوي أن يُعيّنه مستشاراً. وبعد مناقشة متقطعة وافق فورد على مشروع الرسائل والاجتماعات مع السفراء، ولكنه تردد فقط عندما سلّمته وثيقة أخرى تحتوي على التزامات مهمة، بما في ذلـك فهـم بعض الأمور الحساسة تجاه حكومات أخرى. إحداها لم تكن قد نُفذّت، وكان هذا أمراً غامضاً. أخبرت فورد أنه إذا لم يكن مرتاحاً لها أستطيع تأخير تنفيذها، وقلت: ولكن تحويل المسؤولية إلى الآخرين لم تكن من سمات الرئيس القادم الذي قال: «سوف يلومونني أنا وليس أنت»، «لا، سأتخذ القرار».

لعل الانطباع الذي دام طويلاً لهذه المحادثة الأولى كان نتيجتها، فللمرة الأولى منذ مجيئي إلى البيت الأبيض، تركـت الحضور الرئاسي بدون أفكار تخطـر في البال، واثقاً بأنه ليس ثمـة مزيد من المحادثة أكثر مما سمعت.

كان نيكسون واحداً من أكثر الرؤساء الأمريكيين الموهوبين، ومستعداً لاتخاذ قرارات حاسمة وشجاعاً في ذلك، ولكنه كان يحتاج إلى عزلة من أجل إجراء كهذا. وجهاً لوجه كان نيكسون غير قادر على فرض سلطانه على مُحادثه أو حتى عدم الموافقة معه كما سأوضح في فصل لاحق، ولما كان المرء لا يسعه أن يتأكد من أن نيكسون يمكن أن يفسد ما يبدو أنه قرره للتو، فإن الحذر كان يسود على حاشيته.

أما مع فورد فإن ما يراه المرء هو ما كان يترك الانطباع لديه، منذ اللقاء الأول لم أخفِ أي جدول أعمال. كان واثقاً من نفسه إلى درجة عدم الموافقة على أمر ما بشكل علني، ولا يتورط في مناورات معقدة. ولما كان قد وصل إلى الرئاسة بصورة غير متوقعة إذ لم يكن يفكر في الوصول إليها، فإنه لم يكن يشعر بالحاجة إلى المناورة. وكان الاطمئنان الداخلي عند فورد هو ما كانت تحتاجه الأمة على وجه الدقة لمعالجة انقساماتها.

الرئيس الجديد

شهد صباح 9 آب 1974 واحدة من أكثر اللحظات درامية في تاريخ أمريكا. ففي الساعة التاسعة والنصف في «القاعة الشرقية» من البيت الأبيض، ودّع الرئيس نيكسون موظفيه في قمة أحدثت أكبر تمزق في الإجماع الداخلي الأمريكي منذ الحرب الأهلية[4]. وفي الساعة الثانية عشرة والنصف من ذلك اليوم نفسه، والقاعة نفسها، أقسم جيرالد فورد اليمين وأصبح الرئيس الثامن والثلاثين للولايات المتحدة. لقد أعيد ترتيب الأمور بحيث إن فورد عندما تحدث كان يواجه الأمور باتجاه مختلف عن نيكسون مما كان يرمز إلى بداية جديدة.

كلمة الوداع التي ألقاها نيكسون كانت بمثابة مرثاة من الأسى والألم، إذ تحدث بطريقة مضطربة وغير مترابطة عن أحلام شبابه، وعن والدته وعائلته، وعن أهمية تطبيقها عملياً. ما كانت وصية تيودور روزفلت لتقلص المسرح السياسي أبداً. ولماّ كان نيكسون قد كرس معظم جهده لضبط نفسه طيلة حياته، فقد كانَ مكرهاً على كشف عواطفه وأحلامه التي أخمدها طويلاً أمام العلن، بل إنه لبس النظارات لأول مرة علناً. وبالنسبة إلى هيئة موظفين قد أعياها حل الرئاسة كان يدهشها كثيراً أن تشهد في قرار نيكسون الأخير بصفته رئيساً ـ هذا الكشف عن خبايا نفسه كشخصٍ، يرفض الإقرار بالهزيمة، حتى لو كان عمل حياته مليئاً بالشوائب.

بعد ساعتين ونصف من أداء جيرالد فورد اليمين، أعلن بهدوء وثقة أن «كابوسنا القومي الطويل» قد انتهى[5]. أما جمهوره الذي عانى لمدة سنة ونصف تقريباً من هاجس الكارثة، ومن كلمات نيكسون العاطفية في خطبة الوداع، فقد كان يعلق آماله على هذا الرجل المتواضع من غراند رابيدس الذي وضعت الأقدار مصير أمريكا بين يديه.

وكمـا حدث، فقـد لعبت دوراً واضحاً، إذا لم يكن فنياً، في الاستقالتيـن اللتين جعلتا وصول فورد إلى سـدة الرئاسـة ممكناً. فـي الساعة الحادية عشـرة وخمس وثلاثيـن دقيقة صباحاً ناولنـي الجنرال هيغ استقالـة نيكسـون الرسمية موجهة إلي بوصفي وزيـراً للدولة في مكتب مستشار الأمـن القومي في البيت الأبيض، فجميع تعيينات الرؤساء يصـادق وزير الخارجية على صحة توقيعهـا، وكذلك استقالة الرئيس ونائبـه. هذا أثر من آثار الآباء المؤسسين الذين أوجـدوا هذا الإجراء ـ وهو ما يشبه وضع رئيس الوزراء فـي الجمهورية الفرنسية الخامسة. عندما وصلتني رسالة استقالة سبيرو أغينيو بوصفه نائباً للرئيس في 10 ت1، 1973، واستقالـة الرئيس نيكسون فـي 9 آب 1974 بصورة رسمية، تحققت أنَّ مما يمكن أن يأمله المرء هو السجل الدائم لاستقبال الاستقالات الرفيعة.

فـي الوقت الـذي أُبعد فيه أغينيو وأُجبر على الاستقالة، والذي يعتبـر صنيعة نيكسون الأساسي، فإن الباقيـن أصبحوا أشبه ببحارة سفينة محطمة في جزيرة يصعب الوصل إليها. في هذه الظروف أصبحت مطلعـاً على تأمـلات الرئيس المتعلقة بالخيارات السياسية التي تواجهه ـــ وهو موضوع استُبعدت منه في السابـق، فقد وضـع ثلاثة معايير تحكم قراره باختيـار نائب جديد للرئيس: من يستطيـع أن يكون أفضل رئيـس، ومن يثبت حسن ظنه بـدون إثارة مشكلات ووترغيت أخرى، ومن يستطيـع أن يوفر الحافز الأقل شأناً بالنسبة للمدافعين عن حق الاتهام بالتقصير.

مـن بين المرشحين المحتمليـن اعتبر نيكسون حاكم تكساس السابق ووزيـر المالية جون ب. كونيلي أفضـل المؤهليـن إلى حد بعيـد للرئاسة، مع نيلسون روكفلر حاكم نيويورك، كخيـار ثان وإن لم يكن ذلك بسبب جاذبيته لدى نيكسون. كان كونيلي الواثق بنفسه هو الشخص الوحيد الذي لم أسمع نيكسون يتلفظ عنـه بمـا يسيء إلى سمعتـه، وهو بالتأكيد مرشحه الأول لـو لم يتعرض إلى تحقيـق (أدى في النهاية إلى إدانتـه). أراد نيكسـون الذي كان مايزال واثقاً من النجاة مـن (فضيحة) ووترغيت، أن يتأكد أنه بالرغم مـن إعاقـة كونيللي الواضحة، فإن الاختيار النهائي لنائب الرئيـس لن يفسد طموحات كونيلي في أن يفوز بالترشيح الرئاسي للجمهوريين عام 1967 ـ ففي ذلك الوقت/ ربما ستكون مشكلات الأخير القانونية قد أصبحت وراء ظهره.

كانـت مشاعر نيكسون القوية تجاه كونيلي كافية، لإزاحة آمـال روكفلر حتى لو استطاع نيكسون أن يحمل نفسه على تعيين الخصم السياسي مدى الحياة. كانت العقبة القاتلة أمام روكفلر في نظر نيكسون أن تسمية روكفلر من شأنها أن تحدث انقساماً كاملاً في الحزب الجمهوري. (وقال نيكسون فيما بعد إنه فكّر في رونالد ريغان أيضاً ولكنه استبعده لأنه لا يمكن أن يحظى بالتأييد. ولهذا فإنه لم يعد يذكر اسمه أمامي قط).

خلال عملية الإقصاء هذه، ظهر جيرالد فورد كمرشح من جانب نيكسون، إذ سيكون من السهل قبوله، وهـو «ملائـم» كنائب للرئيس في نظر نيكسون. وبالإضافة إلى أنه سيكون مقبولاً من الكونغرس فإن لفورد

مزايا أخرى في نظر نيكسون: إن افتقاره للخبرة على المستوى التنفيذي سيحول دون اتخاذ الكونغرس أية خطـة لاتهام نيكسون بالتقصير، كما وفكر الرئيس، في عدة مناسبات، أن الكونغرس لن يجرؤ على تحمل مسؤولية استبداله برجل لا يتمتع إلا برصيد ضئيل للغاية في الشؤون الدولية.

ولكـن اختيار نائب الرئيس، كمـا تبين فيما بعد، لم يكن له أي تأثير في اتهام نيكسون بعدم الجدارة؛ لأن فضيحة «ووترغيت» آنذاك كان لها زخمها. وقد سُميَّ فورد نائباً للرئيس في 31 من شهر (أكتوبر) وتم تثبيته بسهولة. كما أن ارتقاءه إلى منصب الرئيس بعد عشرة شهور كان موضع ترحيب مع شعور بالارتياح التام.

عندمـا أدى فـورد قَسم تحمل مسـؤولية المنصب لم يكن أحد يسـتطيـع أن يعرف ـ حتى ولا الرئيس الجديـد ـــ إذا ما كانَ كفؤاً للمهمة القعساء التي تواجهه. فقـد تسلم الرئاسة بدون أية خبرة تنفيذية، في وقـت كانـت تعاني فيه أمتنا من انقسام. لقد تسلم فـورد المسؤولية من أجل تجديد بلاده، وهو يفتقر إلى تعويضـ شعبي في أعقاب اضطرابات فيتنام و«ووترغيت». وتسخـر العناية الإلهية من الأمريكيين عندما تأتي ـ ما يبدو بالصدفة ـ برئيس يجسد أعمق وأبسط قيم أمتنا.

لا يوجـد بلـد تجد فيه العلاقـات الشخصية عفويـة مثل أمريـكا، ولا يوجد مكان آخـر تجد فيه كرم النفس وغياب الحقد. ونتيجة لهذه البيئة وصل جيرالد فورد إلى الحكم ومارس سلطاته في تجاوز أمريكا المنقسمة واسترداد إيمانها. وفي غياب أي تكلف حققت إنجازاته غرضها وكانت تحظى بالثقة. وفي الفترة الأخيرة فقط بدأ بعض الصحفيين الذين اعتادوا أن يسخروا منه، في إعادة تقييم فترة حكمه[6].

ويعـود هذا الاستخفـاف بدرجة كبيرة إلى أن فورد كان يفتقر إلى صـورة الزعيم السياسي في عصر التلفاز. فالرؤساء المرشحون حديثاً للرئاسة ينفقون كثيراً على الحملة الانتخابية بما لا يقل عن 15 مليون دولار مـن أجـل الظهور على شاشة التلفـزة والإعلانات في الصحف. ويمكن أن يـزداد هذا المبلغ ضمن حـدود عرّفهـا القانون. ويشعـر المرشح من أجل مصداقيته أنـه مضطر إلى أن يكرس طاقاته من أجل إثبـات وجـوده في الفترة الأولى، في غضون ذلك يكون مبـدؤه الأول محاولة أن يكون كل شيء لكل الناس. وما يبدأ كتأكيد في البداية في غضون الحملة ينتهي كصفة محددة الاعتراف القومي يتحقق على حساب خطر شخصي مُلزم تقريباً.

عصـر الحاسوب والتلفزة قد عزز من عدم الشعور بالأمان، هذا عندما حلت الصورة البصرية محل الكلمة المكتوبة كأداة أساسية لفهم العالم، فقد تحولت عملية التفهم من صيغة إيجابية إلى صيغة سلبية، مـن عمل مُشارك إلـى معلومات مستوعبة مهضومـة. الإنسان يتعلم من الكتب عن طريـق المفاهيم التي تربـط بشـكل ظاهر الأحداث المتفرقة مع بعضها وتتطلب جهداً تحليلياً وتدريبياً. وعلى النقيض من ذلك فـإن الصـور تُعلم بصورة سلبية، بل إنهـا تثير انطباعات لا تتطلب فعلاً من جانـب المشاهد، وتؤكد على

حالـة اللحظة الراهنة ولا تتـرك إلا حيّزاً ضئيلاً للاستنتاج أو التخيل. المفاهيـم دائمة، أما الانطباعات فهي متغيرة وعَرَضية جزئياً.

التقنيـة الجديدة قد غيرت بصورة أساسية الطريقة التـي يستوعب فيها المرشح السياسي العصري دوره. رجـال الدولة الكبار في الماضي كانوا يرون أنفسهم كأبطـال أخذوا على عاتقهم رحلة مجتمعاتهم الشاقـة مـن المألوف إلى ما هو غير معـروف حتى الآن. السياسي المعاصر أقـل اهتماماً بأن يبدو كبطل بقـدر ما يهتم بأن يبدو نجماً لامعاً. الأبطال يسيرون فرادى، والنجوم يكتسبون مكانتهم من الاستحسان. الأبطال يُعرّفون بقيمهم الذاتية، والنجوم يُعرّفون بالإجماع عليهم. عندما تُصاغ آراء المرشح ضمن فئات مركـزة ويصادق عليها منسقـو الأخبار في التلفزة، تصبح الضحالة وعدم الشعور بالأمن فطريين. وتحل الراديكالية محل الليبرالية، وتتقنع الشعبوية بالمحافظة.

مزيج غريـب من الهشاشة والتوهج يحدد الشخصية السياسية المعاصرة: هشاشة تجاوز الخنوع في تحقيق الموافقة الجماهيرية، ويتحول التوهج إلى رعب عندما يتغير مزاج الجمهور.

ومـع اهتمام الزعيـم السياسي المعاصر بما يقـول أكثر مما يفكر به فإنه غالباً مـا يُخفق في تحقيق الدور الذي يحتاجه أشد الحاجة: أن يوفر التوازن العاطفي عندما تُجابه الخبرة بتغيير متسارع باستمرار. والعجـز عن تحقيق هـذه الاحتياجات العاطفية يكمن وراء التناقض الغريـب للديمقراطية المعاصرة: لم يكـن الزعمـاء السياسيون أكثـر خسة من قبل قط فـي محاولة تقريـر أولويات الجمهور، ومـع هذا، فإن الاحترام للطبقة السياسية في معظم الديمقراطيات لم يكن أدنى من ذلك بتاتاً.

وفي الولايات المتحدة يتزامن خط الانقسام ما بين الجديد والقديم في أسلوب ممارسة السياسة مع قـدوم إدارة كينيـدي تقريباً إلـى السلطة، فقد توصل سيناتور شاب وغير مجـرِّب إلى الرئاسة عن طريق الفصاحـة وقدرته علـى استغلال الوسيلة التي كانت ما تزال جديدة وهـي التلفزة. لقد كانت رئاسة جون ف. كينيدي قصيرة جداً لأنْ يختار ما بين البطولة والنجومية، أو أن يكون واعياً في اختياره. كان كينيدي قـادراً علـى ممارسة كلا الأمرين، خلافاً لخلفائه المباشرين الذين وقعوا في مصيدة الوهم بأنه لا حاجة إلى اتخاذ اختيار.

لينـدون جونسـون، المتمرس في السياسـة التقليدية، قد أضعـف نفسه كثيراً في سعيـه إلى مداهنة كينيـدي، وتقليـده، وكان هذا أمراً عسيـراً بالنسبة لرئيس من جيل جونسون. أمـا كينيدي، الذي تخلدت ذكراه بموته المفاجئ، فقد كان يجسد بالنسبة للمعجبين به أحلاماً تحولت إلى تراث. ومحاولة جونسون عبثاً أن يلعب الدور ذاته قد أوقعته في شَرَك تجاه أناس ما كانوا يقبلون به أبداً.

حالـة نيكسـون كانت أشد من ذلك، إذ لـم يوجد رئيس معاصر أكثر انفـراداً، وأكثر جدية، أو يمضي أكثر وقته وحيداً، يقرأ ويرسم خيارات على ورق أصفر. وإذا كان هناك رجل ما من خارج عصر الكتب فهو

ريتشارد م. نيكسون، كان يفهم السياسة الخارجية أفضل من أي شخص مارس السياسة في عصره. ومع هذا، وكما دلت أشرطة محادثاته والملاحظات العاصفة التي سُحبت من مكتبه ونُشرت على الملأ، يتضح أنـه صرف جـزءاً كبيراً من الوقت في مسألـة لا أمل منها لاستنباط المداهنة والتملـق لدى أولئك الذين أطلق عليهم صفة «المؤسسة الشرقية»، والتي كان كينيدي ـ بحسب رأيه ـ أبرز ممثليها.

وفيمـا كانـت قناعات نيكسون راسخة ـ في السياسة الخارجية ـــ ويفكر فيها بحرص، إلا أنها لم تكن تسانده أو تؤيد موقفه إلا إذا قبلت، ليس شعبياً فقط، بل ومن قبل الطبقات التي كان يُعجب بها ويحتقرها فـي الوقـت نفسه. كانت أفعاله أفعـال أبطال، ولكنه كان يحكـم عليها بالإخفاق، في سعيـه المحموم إلى النجومية وإلى الحط من شأن خصومه.

كان جيرالـد فورد مختلفاً قدر الإمكان عن الشخصية السياسة المألوفة. إذ لمّا ظهر من بين صفوف حزبـه في «مجلس النواب» كان محصناً ضد بحث السياسيين المعاصرين كالحرباء عن هويات متجددة. كما كان بعيداً عن التفكير بنفسه كبطل، فقد كان يُحرج عندما يقول أحدهم إن العناية الإلهية قد فرضت عليـه هذا الـدور. وبالنسبة لقائد قومي كانت الشجاعة وتكريس الوفاء للمبـدأ من أهم الصفات على أية حال.

كان فـورد يعي جيداً افتقاره النسبي إلى الدماثـة، خلافاً للزعيم السياسي المعاصر، ولم يكن يخجل من الاعتراف بذلك. وقد قال لي على الهاتف في 15 يناير 1975: «أنا لست من أولئك العباقرة المفوهين، ولا أفكـر محـاولاً أن أكـون منهم. أريد فحسب أن أكـون نفسي». وبعد أسبوع عاد فـورد إلى الموضوع بعد مؤتمر صحفي اعتقد أنه أدى فيه أداء حسناً (وهذا رأي لم أشاركه به). وخلافاً لمعظم القادة السياسيين فـي عصر التلفزيون فقد ألقى فورد الملامة على نفسـه، وليس على الإعلام: أشعر أنني أستطيع أن أكون أفضل بكثير.. أشعر بالجنون، ولكنني لا أبين ذلك، عندما لا أؤدي الشيء كما اعتقد أنني أستطيع ذلك.. إذا لم تناضل من أجل الأفضل فإنك لن تحققه أبداً.

لقـد كان فـورد دوماً هـو نفسه، ويقـوم بأحسن مـا يستطيع على الـدوام، وبهذا أنقـذ تماسك بلاده وكرامتها.

الأزمة الداخلية

خـلال فترة ووترغيت، كنت أحلم أحياناً بنهاية لها، مثـل رحالة يعبر الصحراء ويتخيل بركة أو واحة تؤويـه، وبالنسبـة إلي كنت أتمنى مجيء لحظـة تنتهي فيها الأزمات الدولية أو تصبـح معتدلة على الأقل، وأن يحـل إجماع وطني جديد محـل الشقاق الداخلي. ولكن ما يحدث عادة لعابر الصحراء أنَّ هذه الرؤى تتحولُ إلى سراب.

مهزلــة رئاســة فورد أنه مهما حاول أن يكرس نفسه لتجديد مجتمعــه، فإن أنظمة المجابهة التي نمت وتطورت على مدى عقد من الزمن لا يمكن أن تزال بين عشية وضحاها. والحق أنه كان يبدو أحياناً كما لو أن الولايــات المتحــدة أضحت مدمنة للأزمات ولا يمكن أن تتخلص منها بدون معالجة أو تحقيق اكتشاف مــا. فوسائل الإعلام كانت ناشطة في الكشف عن الإساءات الكبيــرة التي تحقق لها الشهرة، والكونغرس كان مشغولاً بالانقسامات بدلاً من الانشغال بسياسة أمنية قومية غير حزبية.

فــي هــذا الجو ما كان بوسع فــورد أن يتمتع أبداً بشهر العسل الذي يُمنح عــادة للرؤساء الجدد. فمنذ اليــوم الأول لولايته كان عليــه أن يواجه عدة جبهات في وقت واحد. وكان للأزمات الدولية زخمها الخاص بهــا، ولــم تؤثــر إلا هامشياً على المدى القصير فــي السياسة الداخلية. وإذا كان ثمــة سبب فهو أن انتباه العالــم قد ابتعد مؤقتــاً عن الدراما التي كانت تجري في واشنطن، وعاد إلــى وضعه الطبيعي، وهذا يعني عملياً زيادة حدة التحديات الخارجية.

ففــي قبرص انهارت اتفاقية وقف إطــلاق النار غير المستقرة ما بيــن اليونانيين والأتراك، والتي تم التوصــل إليهــا في الأيام الأخيرة من أيام إدارة نيكسون، وفي اليــوم الرابع من تولي فورد الرئاسة هددت بالتصعيــد في أية لحظة والتحول إلى نزاع مسلــح بين بلدين حليفين في «الناتو». وفي الأسبوع الذي تولى فيــه فورد الرئاسة كان وزراء خارجية مصر والمملكــة العربية السعودية وسورية، والملك الأردني حسين، يستعدون للمجيء إلى واشنطن للبدء باستكشاف المرحلة التالية من التسوية السلمية في الشرق الأوسط. ولم يكن من الممكن تأخير زيارتهم؛ لأن نظراءهم من إسرائيل والأردن كانوا قد استُقبلوا من قبل نيكسون في الأسابيع التي سبقت التغيير في الرئاسة، والتأجيل قد يؤجج الاتهامات بالتأخير المتعمد.

علــى الجبهات الأخرى كان الوفــد الأمريكي الذي يتفاوض حول مراقبة التسلــح مع السوفييت ينتظر تعليمــات جديــدة، فالمعارضة حول اتفاقية التجارة مع الاتحــاد السوفييتي كانت تنتظر حل النزاع ما بين الجانــب التنفيذي والكونغرس حول إذا ما كان وضع الدولة الأولى بالرعاية الذي سيُمنح للسوفييت ينبغي أن يكون مشروطاً بتسهيل إجراءات الهجرة بالنسبة لليهود السوفييت.

بالإضافة إلى ذلك، كان ثمة قضايا أكثر أهمية ـ وإن كانت أقل إلحاحاً ـ تنتظر الرئيس الجديد. ولعل التحــدي المصيري الأكبر الذي كان يواجــه الديمقراطيات الصناعية هو الفوضى الجماعية بسبب زيادة أسعــار الطاقة بمقدار أربع مرات. ومن شأن العمــل المنسق وحده أن يتجنب ذعراً مالياً وتدهوراً سياسياً فــي أوروبــا الغربية، وقد حان الوقت لتحمل مسؤولية مستقبلنــا المشترك. وكان ثمة إجماع لرسميين دون مستوى الوزراء للدول الديمقراطية الصناعية قد انعقد لتأسيس «وكالة طاقة دولية» لتمكين الدول المُمَثلة مــن المحافظــة على الطاقة، والمشاركة في الإمدادات في حالة الطوارئ، وإيجاد شبكة أمان مالية إذا ما أراد منتجو النفط أن يستخدموا فائض البترو ـ دولار الضخم لديهم للضغط على مستهلكي النفط.

وراء هـذه المسائـل التكتيكية، كانـت إدارة السياسة الخارجيـة في رئاسة فورد قـد أصبحت معقدة علـى نحـو خاص بسبب وصية لنيكسون دعاها «بنية جديدة للسلام» لقـد كانت الحرب الباردة بالطبع ما تزال قائمة، وظل الاتحاد السوفييتي يشكل تهديداً كبيراً، بتوسيع قدرته النووية، والاستمرار في ادعاءاته الأيديولوجية، وقادراً على الاستفادة من الانقسامات الداخلية للقوة العظمى المنافسة له.

كانـت إدارة نيكسون قد سعت بانتظام إلى تغيير بيئة الحرب الباردة، ولم يكن هذا بسبب عدم فهمنا للأيديولوجيـة السوفييتيـة، لا بل إننا استنتجنا أن الهدف الاستراتيجـي السوفييتي كان في انحدار. ففي غضون جيلين من التاريخ الشيوعي لم يفز أي حزب شيوعي في انتخابات حرة. الحلفاء الوحيدون للاتحاد السوفييتـي كانوا في أوروبا الشرقية، وهم منضبطون بسبب الاحتلال العسكري السوفييتي. وما إن يكتمل انفتاحنـا على الصين حتى يواجه الاتحـاد السوفييتي تحالف جميع الدول الصناعية في العالم مع الدولة الأكثـر سكاناً. آجلاً أم عاجلاً هـذه المسألة ستكون في صالح الديمقراطيـات، مفترضين أن هذه الدول سـوف تحتـوي المغامرات السوفييتية عن طريق الـردع وإعطاء السوفييت فرصـة لتقليص المجابهة عن طريق فرض التعاون.

لـم يرث أي رئيـس جديد منذ هاري ترومـان مثل هذه السلسلـة من التحديـات السياسية الخارجية فـي الأسابيع الأولى من استلامه للسلطة، وظروفاً غير ملائمـة على الصعيد الداخلي منذ عهد لينكولن. جميع القوى المناضلة في الولايات المتحدة وجدت من الصعب أن تحرر نفسها من المعارك الداخلية في العقـد الماضـي، ولاسيما أن مناضلي حركـة الاحتجاج ضد فيتنام كانوا يعتقـدون أن السياسة الخارجية عمليـة أخلاقية لعبت فيها الولايات المتحدة دور الشرير، وكانوا يحنون لنضالات تشتمل على بذور تجربة حياتهم.

لا يوجـد ثمـة مجتمع آخـر يعتبر نفسه نتـاج رؤية أخلاقية منفـردة كالمجتمع الأمريكـي ـ فالولايات المتحدة تتملكها قناعة بأن القضايا السياسية ـ ولاسيما السياسة الخارجية ـ قد تتساوى مع خياري الشر والخيـر. كان الأمريكيـون يعتقدون دوماً أن مجتمعهم في سعي دائم مـن أجل الكمال في الشؤون الدولية، ويُكافـئ عندما يحقق وعده، ويُعاقب عندما يقصـر، الويلسونية دحضت هذا الاعتقاد من خلال نظرية لا سابـق لها تفيد بأن الحروب لا تنتـج في كثير من الأحيان عن الصراعات من أجل السلطة، نظراً لأن هذه الصراعـات تعكـس مشاعر أخلاقية داخلية، ولاسيمـا الدرجة التي وصل فيها المجتمـع إلى التقصر في الوصول إلى المثال الديمقراطي. وفي عالم الديمقراطيات فإن النزاعات يمكن أن تُحل عن طريق القانون الدولـي، أمـا التحالفات فتقوم على مبدأ الأمن الجماعي الذي يجعل الدفاع أقل اعتماداً على توازن القوى مـن تحالف المحقين ضد الخارجين على القانون، جميع هـذه الافتراضات تلاشت في فيتنام، في حقول أرزها وجبالها.

دخلت الولايات المتحدة الهند الصينية بموجب تقاليدها التاريخية وقيمها، ولأسباب أخلاقية رفيعة: كالقناعة بأن المؤسسات الديمقراطية، القابلة للتطبيق دولياً، يمكن أن تُغرس بنجاح في بلد مقسم يبعد ثمانية آلاف ميل وسط حرب أهلية مهلكة، وأن المبادئ التي أعادت بناء أوروبا سوف تبرهن قابليتها للتطبيق في سياسات جنوب شرق آسيا غير المجربة[7]. ولما تحولت هذه الآمال إلى أوهام فقد تشتت الطبقات الحاكمة الأمريكية، ولم تهاجم الانتقادات أخطاء الحكم على الأشياء بقدر ما توجهت إلى الخبرة الأمريكية. لقد وُجهت الملامة إلى الإحباطات المتصاعدة نتيجة إخفاق النظام السياسي بكامله والعيوب الأخلاقية التي كانت بحاجة إلى جذور وأغصان مشذبة.

ما حدث أن غالبية «المؤسسة القديمة» ـ الرجال والنساء ـ الذين وجهوا السياسة الخارجية الأمريكية لمدة جيل ـ قد أصرت على هزيمة بلدها من أجل تطهيرها؛ ففي العشرينيات، حولت الانعزالية الولايات المتحدة نحو الداخل بسبب الاعتقاد الواسع الانتشار بأن البلاد أخلاقية جداً بحيث ينبغي ألا تُعرّض نفسها إلى نقائص العالم على اتساعه. وأثناء حرب فيتنام وما بعدها اتخذت الانعزالية موقفاً يقول بأننا فاسدون أخلاقياً جداً بحيث نشارك في السياسة الدولية.

ولما كان الليبراليون قد غيروا اتجاههم نحو السلبية، والراديكالية، والاحتجاج، فقد تحول المحافظون إلى صليبيين؛ لذلك شجعوا على سياسة الاحتواء وفقاً للقواعد الأمريكية التقليدية: كأداة لتحويل النظام السوفييتي إلى الديمقراطية. ولما كانت سياسة الاحتواء قد سقطت في جنوب شرق آسيا، فإن بعض المحافظين حولوا الإذلال القومي إلى هجوم، لا على حركة الاحتجاج، بل على الإدارة، وألقوا بالملامة على مؤسسة السياسة الخارجية بسبب عدم الاحتراس الأخلاقي، وما إن انتهت الحرب بسلام حتى راحوا يحضون على الهجوم على الشيوعية نفسها (لفظياً على الأقل) وعلى ضرورة وجود سياسة متعمدة لمجابهة الاتحاد السوفييتي.

وكان يعزز موقف المحافظين التقليديين متطوعون جدد من الجانب الآخر من المتاريس. وقد انضم بعض الراديكاليين البارزين إلى خصومهم في المعسكر المحافظ. «المحافظون الجدد» المزيفون، أولئك الذين كانوا في البداية مثقفين أدخلوا في الصراع عنصر الطابع الإيديولوجي الذي مارسوه في معاركهم الطائفية السابقة في اليسار. كانوا في الجانب المعاكس من الجدل حول فيتنام، ومن هنا فإنهم لم يمنحوا نيكسون مصداقية من أجل جهود التحرر، كما لم يكن لديهم خبرة بهشاشة إجماعنا الداخلي، الذي فعلوا الكثير من أجل إضعافه. من هنا فقد شعروا أقل تقيداً بالحث على حملات جديدة من أولئك الذين ينتمون إلينا، الذين سعوا، تحت تأثير فيتنام ووترغيت، إلى تحقيق توازن في البيئة وإعادة بناء الثقة قبل أن ينهمكوا في مجابهات جديدة كبرى. وسط هذه الزوبعة من التيارات المتصارعة وجدت إدارة فورد الجديدة نفسها هدفاً لانتقاد من جميع الجوانب. فرد الفعل على فيتنام وفضيحة و«ووترغيت»

قـد استقطـب البلاد. أراد الليبراليـون أن تنسحب الولايـات المتحدة من الاهتمام بشـؤون العالم وتتجه نحـو التحسيـن الداخلي، أما المحافظون فقد شرعوا في التذمـر الغاضب من أجل حملة إيديولوجية. في رأي الليبراليـين أن تدخـلات أمريـكا الدولية قد ذهبت بعيـداً جداً، أما المحافظون فيـرون أن الولايات المتحـدة لـم تكن حازمة كفاية. هذا الجدل استمر طوال عهد إدارة فورد وكان موضوع معظم المجابهات مع الكونغرس، والتي استمرت في أشكال مختلفة حتى يومنا هذا.

فورد والكونغرس

عادة عندما يرتقي نائب الرئيس إلى سدة الرئاسة فإنه يستطيع الاعتماد على حزبه، ولكن في الوقت الذي كان فيه فورد يؤدي القسم الرئاسي، كان الحزب الجمهوري قد انقسم أولاً بشأن فيتنام، ثم تلطخت سمعتـه بسبـب «ووترغيـت». وكان الوضع مشابهاً إلى حـد كبير في الحزب الديمقراطـي. ولما كان فورد قـد عُيّـن رئيساً، بوصفه كان نائباً للرئيس، ولم يُنتخب، فقـد كان عليه أن ينتظر 27 شهراً من أجل إعادة انتخابـه، وفُرض عليه وضع لم يواجهـه رئيس جديد من قبل. كما أن توقـع الكثيرين في كلا الحزبين أن يُهزم في تلك الانتخابات كان بمثابة ضربة أخرى للسلطة الرئاسية.

كانـت الضغـوط تتراكـم لأن فورد ـ رغم خبراتـه في الكونغرس وتمرسه بالعلاقات مـا بين الإدارة والكونغرس، ـ جاء إلى السلطة عندما كانت هذه العلاقات تتعرض لتغير جذري. بهذا المعنى كانت إدارة فورد هي التي دفعت الثمن الباهظ لووترغيت.

فـي ت2 (نوفمبـر) 1972 حقق نيكسـون الانتصار الثاني الأكبـر في التاريخ الأمريكـي في انتخابات وطنيـة جـرت حول قضايا فلسفيـة تجلت بوضوح في هذا القـرن. لم يكن جورج مك غافـرن ولا نيكسون يتحليـان بشخصيـة قيادية، ولكن خلافاتهما الجوهرية كانت واضحة تمامـاً: فسياسة نيكسون الخارجية القويـة الحاميـة لخطوط التقسيم القائمة في الحرب الباردة ضـد باسيفيكية مك غافرن الجديدة وعدم ثقتـه بالقـوة الأمريكية؛ كما كانت محافظة نيكسون المعتدلة تؤكد القيـم الأمريكية التقليدية في مواجهة مصادقـة مك غافرن الضمنية على أنمـاط حياة حركة الاحتجاج المتطرفـة ومزاجها. وفاز نيكسون في الاستفتاء الواقعي بنسبة 61% من الأصوات الشعبية.

وفـي أقل من سنة، محت «ووترغيت» نتائج تلك الانتخابـات، ووصلت إلى حد ثورة كاسحة لأنها جرت بسبـب سـوء إدارة رئاسية. وبعد ثلاثة شهور من تولـي فورد السلطة عادت أغلبية مـك غافرن التي تمثل وجهـات نظر قد رُفضت من الشعـب الأمريكي قبل سنتين، إلى السلطة. وكان هذا يعود إلى تغيير في آراء الجمهور الأساسية أكثر مما يعود إلى رد فعل غاضب على فضيحة ووترغيت.

وكانـت النتيجـة انحداراً خطيراً فـي العلاقات ما بيـن السلطتين التشريعيـة والتنفيذية. وعند ذاك أصبـح رؤسـاء لجـان مجلس الشيـوخ والنواب عجلـةَ الميزان بين فـروع الحكم. ولكن فـورة مك غافرن

أضعفت النظام المذكور؛ وبالتالي سلطة رؤساء اللجنة. وهذا ما أرغم السلطة التنفيذية على الدخول في مفاوضات مباشرة مع شيوخ وأعضاء من الكونغرس كل حدة بينما، أعضاء الهيئة التشريعية ازدادوا حجماً ونفوذاً. ومع تزايد مدى وشدة تدخل الكونغرس في شؤون السياسة الخارجية، فإن قدرة السيناتور الفرد وحتى عضو الكونغرس على التواصل والاطلاع قد تقلصت، أما دور المستشارين فقد تضخم. وهي حقيقة سرعان ما أدركتها مجموعات المصالح الخاصة واستغلتها.

نسبة عالية من الكوادر الجديدة جندت في الهيئة التنفيذية، حيث فشلت لسبب أو لآخر في تحقيق مطامحها، فقد كانوا قادرين تحت الغطاء الآمن لهضبة الكابيتول على التعامل مع الإدارة بشكل خاص، متحررين من ضغوط الإحساس بالاستمرارية ومنظور السياسة الخارجية بعيدة المدى الذي لا ينفصل عن بناء السياسة رفيعة المستوى، وهكذا وجدت الهيئة التنفيذية نفسها في مفاوضات لا تنتهي، داخلياً وفي الكونغرس، ساعية إلى التأثير في أدق تفاصيل السياسة الضمنية.

ومن دواعي التناقض أن الكونغرس شعر بحرية أكبر في تحدي فورد أكثر من قدرته على تحدي نيكسون في السابق. فلفترة ما جمدت ووترغيت تحديات الكونغرس للسياسة الخارجية؛ لأن بعض منتقدي نيكسون خافوا من أن يُتهموا بإضعاف الأمن القومي، والأهم من ذلك أن الكونغرس كان منضبطاً في المرحلة الأخيرة من فضيحة ووترغيت لأسباب وطنية. شعور بالمسؤولية خشية أن تُغري هذه المأساة الوطنية الأعداء الخارجيين على إيجاد أزمة كبيرة.

بدت استقالة نيكسون أنها تُسعّر هذه القلاقل، فقد تصاعد أمام الكونغرس هوس جماعي من أجل إجراء تحقيقات أكثر اكتساحاً وتطهيراً، حيث كانت التحقيقات الاستخباراتية الأكثر حساسية، بكشفها عن كل عملية سرية كانت الولايات المتحدة على صلة بها خلال فترة تزيد عن عشرين سنة. وهذا ما استغرق مقداراً كبيراً جداً من أوقات كبار المسؤولين في إدارة فورد في خدمة اللجان وفي الاتفاق حول كيفية معالجة الوثائق المصنفة.

في هذا الجو الجديد شعر الكونغرس بحرية أكبر في تشريع سياسات خاصة أكثر من أي وقت مضى. وبقدر ما كانت معارضة الكونغرس لحرب فيتنام قاسية، فقد قصر الكونغرس انتصاره على قرارات غير ملزمة. ولكن في التسعة والعشرين شهراً من ولاية فورد، شرّع الكونغرس قانوناً بحظر السلاح عن تركيا، وقطع المساعدة عن كامبوديا وحولها إلى فيتنام، وحظّر أي دور عسكري في أنغولا. وذهبت الإدارة المصغرة بعيداً جداً بحيث إن الكونغرس صوّت لصالح إعطاء صواريخ للأردن مضادة للطائرات بشرط أن تكون في مواقع ثابتة. (رفض أن يكون لها عجلات، كان أكثر إذلالاً من أن يكون ذا معنى، وكما أشار الملك حسين في ذلك الوقت، فقد كان من السهل إيجاد مثل هذه العجلات في أسواق العالم العربي).

فورد والمصلحة القومية

تعامل فورد مع حجم التحديات الكبيرة بدون تخوف أو شك في الإيمان الطيب لدى مستشاريه السياسيين. المنتقدون الليبراليون كانوا يحثون على مجابهات بشأن حقوق الإنسان، والمحافظون الجدد كانوا يحتفلون بتحولهم الأخير لحثّ الرئيس الجديد غير المنتخب على أن يجرب سلسلة من الاستعراضات أمام الاتحاد السوفييتي في وقت كانت السياسة السوفييتية فيه ما تزال مرنة، والكونغرس كان يخفض ميزانية الدفاع.

نظر فورد إلى دوره مثل طبيب يسعف مريضاً بدأ يشفى من مرض منهك، ولهذا رفض مطالب مرهقة لبناء نظام أو لحماية القوة. وكان في موقعه المتحفظ يحظى بالتأييد؛ لأن الكونغرس كان قد قرر لتوه تشريعاً بتخفيضات في ميزانية عام 1974 الدفاعية، ضرورية لجاهزية سلاح الطيران، وتسبب في إضعاف استعداد جاهزية سلاح البحرية، كما خُفضت قوات الجيش بمقدار خمس فرق بالمقارنة مع ذروة تعداده في فترة حرب فيتنام.

فكر فورد بأنه من الضروري أن يبرهن للشعب الأمريكي أن الأزمة والمجابهة هما الملجأ الأخير، وليستا أداتين يوميتين لإدارة السياسة الخارجية. كلانا كان مقتنعاً أننا توقفنا لكسب الماراتون، فالاتحاد السوفييتي باقتصاده المترنح لن يكون قادراً في النهاية على المنافسة مع تحالف كنا نعمل على إنشائه من جميع الدول الصناعية الديمقراطية بالتعاون مع الصين، البلد الأكثر سكاناً في العالم. وهذا ما حدث أساساً التزاماً من فورد بقوله: إن رئاسته ينبغي أن تكون فترة الشفاء (كما أطلق على مذكراته فيما بعد)[8] فقد أظهر حسن نواياه تجاه الأصدقاء والخصوم على حد سواء. وفي استعادة لصورة الماضي أجدني أُعجب بضبط النفس لدى فورد؛ لأنه أفرغ بالتدريج النظام السياسي الأمريكي من سمومه المتراكمة وخلق الظروف من أجل إعادة الثقة بالمؤسسات الأمريكية، ففي النهاية إن المجتمعات لا تنهض على انتصار المجموعات، بل على المصالحة والتوافق فيما بينها.

تجلى تحلي فورد بسمة الشجاعة والقيادة من خلال سلسلة من الأعمال حدثت في الشهر الأول من رئاسته، ففي اليوم الثاني لوجوده في الرئاسة دعوته أنا ووزير الدفاع جيمس شليسينجز لأن يتخذ قراراً لا يحتمل التأخير.

وبدا ذلك عندما أمر فورد بإنقاذ غواصة سوفييتية غارقة في شمال المحيط الأطلسي، على عمق 61 ألف قدم منذ عدة سنوات، كما تجلى في لقائه الأول مع السفير السوفييتي في أمريكا أناتولي دوبرينين، حيث طلب منه الإفراج عن بحار سوفييتي (من ليتوانيا). وقد استجاب السفير لطلب الرئيس الأمريكي رغبة منه في بناء علاقة طيبة مع الرئيس الجديد.

كانـت معالجة فورد فـي مسألة العفو عن نيكسون من الأهمية بمكان. فقـد كان من المؤكد أن توجه تهمـة إلى نيكسون من جانـب المدعي العام ـ وهذا أمر مؤلم بالنسبة للولايـات المتحدة والرئيس الذي سقـط. فمثل هذا المشهد مـن شأنه أن يسيء إساءة بالغة إلى سمعة أمريـكا في العالم، وأولئك الذين يعرفـون نيكسـون كانوا يشعـرون بالتأكيـد أن دخولـه المحكمة أو حتى توجيـه الاتهام إليـه سيكون له مضاعفـات جسديـة ونفسية. وقد أثرت هذا الموضوع الذي كان يؤرقنـي، بعد التشاور مع بريس هارلو، الـذي كان مساعداً للرئيس إيزنهاور لشؤون الكونغرس، حكمة هارلو وسحره وذكاؤه قد جعلت منه أكثر النـاس احترامـاً في «مؤسسـة واشنطن» الدائمـة. وكان ينصحني حول كيفية تجنـب ضحالة السياسة العليـا. الآن يناقش هارلو بأن تقديم نيكسون إلى المحاكمة سوف يزيد مـن انقسام الشعب الأمريكي، وقد يفاقم من التفسخ العاطفي لرئيس قدم، رغم كل أخطائه، خدمة متميزة لبلاده.

الحديـث مـع هارلو أعطاني حجة لإثـارة الموضوع مع فورد، الذي نقلت إليـه أفكار هارلو وصادقت عليها، وكانت حجتي في المناقشة مع الرئيس هي أن المحاكمة لها تأثيرها النفسي في الشعب الأمريكي، وفـي العالم، حيث كان الرئيس السابق يحظى بالاحترام. ذكر فورد أن بعض مستشاريه يرون أنه ينبغي أن ينتظر حتى تثبت الإدانة، أجبت بأنني لا أحكم على الوضع الداخلي، ولكن التأخير من شأنه بالتأكيد أن يُعقّد التأثير الدولي ويأس نيكسون الشخصي.

لم يعلق فورد على كلامي في حينه، ولكنه هتف لي بعد بضعة أيام، في 7 أيلول 1974، ليعلمني بقرار عفـو عن نيكسون كـي يعيش ما تبقى من أيام حياتـه بكرامة. وبروح من الغفـران المسيحي، لم ينتظر نيكسـون تعليقاتي مع أن القرار ربمـا كان قد يكلفه انتخابه في الانتخابات التالية، فإنني على قناعة أنه كان عملاً شجاعاً وإنسانياً وضرورياً إذ كانت الأمة تريد أن تتخلص من صدمات العقد الماضي.

هـذا الإحساس المقدام بالمصلحة القوميـة مكّن الرئيس فورد خلال ولايته التـي دامت 29 شهراً مـن أن يقود بـلاده عبر سلسلة من الأزمـات ملأت مرحلتين مـن الرئاسة، فقد ضبـط النزاع العرقي فـي قبرص، ونزاعاً مشابهاً في لبنان وحال دون أن يتصاعدا إلـى حرب دولية، واستطاع إسقاط الهند الصينية بكرامة، واستخدم بنجاح القوة العسكرية لتحرير السفينة الأمريكية «مايا غويز» التي صادرها كمبوديـون مجرمون من الخمير الحمر، كمـا حقق فورد نجاحاً كبيراً في مراقبـة التسلح الاستراتيجي مـع الزعماء السوفييت في فلاديفـوستوك عام 1974، وفي تحقيق اختراق في عملية السلام في الشرق الأوسـط عندما وقعت مصـر وإسرائيل اتفاقية سينـاء المؤقتة عام 1975، ورغـم المعارضة العاطفية إلاّ أنـه صـادق على القـرار الأول «لمؤتمر الأمن الأوروبي»، الـذي ثبت اليوم بوضوح أنـه مَنْ أسهم في إسقاط الإمبراطوريـة السوفييتية، ودفع فورد بالمبادرة الأمريكية قُدماً لتأييد حكم الأكثرية في جنوب أفريقيـا وساند الدبلوماسية التي قادت إلى النجاح النهائـي، وأوجد برنامجاً للتعاون بشأن الطاقة بين

الديمقراطيـات الصناعية والذي تأكد في القمم الاقتصادية التي أصبحت المقومات الأساسية للنظام العالمي المعاصر.

بعضـ الزعمـاء الآخرين يحظون بشـرف كسب الحرب البـاردة، ولكنني متأكـد أن الوقت سيحين للاعتـراف بـأن الحرب الباردة ما كانت لتُكسـب لولا جيرالد فورد، في فترة حرجـة من تاريخ أمريكا، الذي حال دون أن نخسرها.

obeikandl.com